كلمة التحرير

أهمية البناء الفكري في الرؤية التجديدية

هيئة التحرير*

مرّت على الأمة تيارات ومدارس ورؤًى تجديدية متنوعة، وانطلقت هذه الرؤى من مرجعيات مختلفة، وابتغت مقاصد تتسق وخطابَها المجتمعي. ولعل من يتفحص مشاريع الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي، سيجد أن ثمة مشارب ومناهج ومقاصد متعددة لهذه الأطر الإصلاحية التجديدية؛ فثمة كيانات اجتهدت في العمل السياسي، وأخرى في الإطار التربوي، وثالثة في بناء الوجدان والتزكية، ورابعة في الإصلاح التعليمي، وخامسة في الإصلاح الفكري إلخ، وتستمر حلقات الإصلاح متسقةً مع المقاصد والآليات والفئة المستَهدَفة من العملية الإصلاحية والتجديدية.

وفي سياق واقع أُمتنا المعاصر، نرى أنّ من الضروري تعميق الوعي بأهمية البناء الفكري في الرؤية التجديدية لحركات الإصلاح والتجديد، منطلقين من فكرة أنَّ أيَّة حركة تجديدية، تحتاج إلى قدْر معيّن من الأسس الفكرية التي تنتظم رؤيتها، وتحدِّد آلياتها في العمل، ومنطلقين كذلك من أنَّ الأزمة الأساس التي تعانيها الأمة هي الأزمة الفكرية، وهي أزمة تصوُّر ورؤية كُليّة للوجود. وبهذا المعنى، فإنَّ مسارات الإصلاح والتجديد تنطلق من الأساس الفكري والتصوُّري للمسلم؛ لِما لعالَم الأفكار من تأثير عميق في بناء الفرد والمجتمع والأمة.

في كتابه القيّم "البناء الفكري: مفهومه ومستوياته وخرائطه" يرى الدكتور فتحي ملكاوي أنّ البناء الفكري بناءٌ للإنسان يتّصف بالحركة والتطوّر والتغيّر والنمو من داخل الإنسان؛ إذ تتشكل شخصية الفرد الإنساني من بنائه الفكري، وبنائه النفسي. وفي الوقت الذي يختص البناء الفكري

* هيئة التحرير (2022). **كلمة التحرير**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 28 العدد 104، 5-11.

DOI: 10.35632/citj.v28i104.7139

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي 2022

بالقناعات العقلية والمعتقدات، وما تتضمنه من حقائق ومفاهيم ومبادئ ونظريات، فإنَّ البناء النفسي يختص بالجانب الانفعالي والوجداني من الإنسان؛ إذ تتحكم الإرادة والدوافع والمشاعر في السلوك العملي للإنسان. وبهذا، فإنّ مفهوم البناء يصاحبه التخطيط والتصميم والتنظيم، ويقابله التكديس والتجميع العشوائي. ومفهوم الفكر يصاحبه العلمُ في تَمَكُّن، والثقافةُ في إحاطة، والوعي في رشد، ويقابله تقليد بلا علم، وتبعية بلا هدىً، وتعصب أعمىً دون نظر، فالذي لا يملك فكراً يقوم بما يقوم به من أعمال انقياداً لهوىً متَّبَع، سواءً كان هوىً نفسه أو هوىً غيره وليست المقارنة هنا بين العلم والفكر، لنعطيَ الأفضلية لأحدهما على الآخر، مثلما أنَّنا لا نقارن بين الفكر والثقافة أو بين الفكر والدعوة أو بين الفكر والفلسفة، إلخ، لنعطي الأفضلية للفكر على الثقافة أو الدعوة أو الفلسفة أو أيّ من العناوين الأخرى. ويمكننا أن نقول: إنَّ العلم فكر، وإنَّ الثقافة فكر، وإنَّ الفلسفة فكر، فكل ذلك فكر إنساني، وكلّه نتيجة للتفكير الذي يقوم به الإنسان، ولكنه فكر بمستويات مختلفة وبمواصفات مختلفة.

والفكر المقصود، في سياق ما نتحدث عنه، هو نوع من الإدراك والفهم الذي ينطلق من قدرة الإنسان على استيعاب العلم وتجاوزه؛ أي الخروج من تفاصيله الجزئية إلى رؤيته الكلية، التي تتيح للإنسان معرفة حدود العلم وإمكانات توظيفه، والأغراض التي يوظّف من أجلها، وكيفية توظيفه ومسؤولية من يوظِّفه، إلخ. ولـ (بن نَبِي)* فكرة لطيفة في التمييز بين البناء والتكديس، وذلك في حديثه عن البناء الحضاري؛ إذ يتحدث عن العالَم الإسلامي الذي بقي دهراً طويلاً خارج التاريخ، فانتبه في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين على صيحات إصلاحية تدعو إلى النهوض الحضاري، لكنَّ جهوده في السعي إلى ذلك اكتفت باستيراده منتجات الحضارة من الآخرين، والحضارة في حقيقتها منتجات مادية لها روحها وفكرها وأدواتها وأنظمتها، التي لا تباع ولا تعار؛ لأنَّها تمثل الخصائص الذاتية للحضارة وللمجتمع الذي يبني تلك الحضارة.

* استخدمنا كلمة (بن) بدلاً من (ابن) قياساً على ما يستخدمه كثير من الباحثين في المغرب العربي فيقولون (بن نبي).

والمجتمع الذي يستورد المنتجات مع فكرها وروحها يكون قد فقد هُويته الحضارية وأصبح امتداداً للمجتمع الذي استورد منه منتجاته، أما المجتمع الذي يستورد منتجات الحضارة دون روحها وفكرها، فإنه يقوم بتكديس هياكل لا روح لها، وتجميع أكوام من الأشياء لا فكر فيها. وبناءً على ما سبق، فإنّ البناء عملية تتم بمنهج وطريقة، وتعني الانتقال من حالة قائمة إلى حالة منشودة؛ فثمة هدف، وخطة للوصول إلى الهدف، يتم تنفيذها بخطوات محددة.

تحتاج أية حركة إصلاحية أو مشروع تجديدي إلى هوية توضّح بناها الفكرية ومنطلقاتها ومقولاتها الكبرى وآلياتها ومقاصدها ومجتمعها. وهذه الهوية تضمن للمشروع الإصلاحي الانسجامَ والاتساق بين أفراده. ومن ثمّ، تماسك مجتمعه وصلابة خطابه. وتتكئ هذه الهوية الفكرية على مجموعة من الأسس، أهمها: المرجعية والرؤية الكلية للفرد وللمجتمع المسلم. ففي الفكر الإسلامي مبادئ كُلية تنتظم تفكيره وتصوغ رؤيته المعرفية والوجودية، وتحدد علاقاته مع الذات والآخر، لتتسق هذه الرؤية مع المقاصد العليا للدين. وتتجلى هذه الهوية الفكرية للمسلم في مناحي حياته المختلفة، وفي مجالاته العلمية والعملية؛ فثمة بنية فكرية ومبادئ كلية في عمله السياسي تُحدد منطلقاته ورؤاه فنطلق عليه الفكر السياسي أو الفقه السياسي، وهكذا في الفكر التربوي، والفكر اللغوي، والفكر الاجتماعي، والفكر التاريخي، والفكر الجغرافي إلخ. وهذه ميزة للعمل الفكري؛ إذ يستثمر المفكِّر تخصصه الفني (علوم دقيقة أو اجتماعية أو شريعة إلخ) في التعبير عن أفكاره ورؤاه الكُلية، لينتقل في تفكيره وتعبيراته من الجزئي إلى الكلي. وهذا ما نتلمسه في عدد من المجددين والمفكرين الذين حاولوا التجديد في الفكر الإسلامي؛ إذ لم يكن تخصصهم الفني (هندسة، وطب، وفلسفة، وعلم اجتماع...) عائقاً أمام إسهاماتهم المميزة في تجديد الفكر الإسلامي، بل وجدناهم قد استثمروا معارفهم وعلومهم التخصصية في تطوير هذا الفكر، وربط العلم بالفكر، منطلقين من المبادئ الكُلية للإسلام. ولو استعرضنا خارطة الحضارة الإسلامية سنجد عدداً كبيراً من المفكرين والعلماء الذين أسهموا في إغناء الفكر الإسلامي وإثرائه، موائمين بين العلم (التخصص) والفكر، وفي شتى المجالات المعرفية؛ إذ نجد الطبيب، والفنان، والفيلسوف واللغوي، والفقيه، والكيميائي،

ينطلقون من رؤية كلية واحدة، ويتعاملون مع العلم بِناء على هذه الرؤية الكُلية، فينتقلون من دائرة الحديث عن فنيات العلم إلى فلسفة العلم.

ويخبرنا سِفر التاريخ بأنَّ الإبداع الفردي صورة ظاهرة في المجتمعات، لذلك ارتبطت مظاهر النبوغ والاكتشافات والاختراعات والفتوحات ... بالأفراد، وتمحورت الأدبيات حول الشخصيات والأعلام التي لها تأثير في مسيرة الحضارة، وركزت الدراسات النفسية والاجتماعية التربوية على الأفراد بصورة خاصة، قبل أن يتبلور علم الاجتماع ودراساته حول المجتمع بصفته مجموع الأفراد. وقرأنا تحليلات كثيرة حول مكامن القوة الفكرية لأولئك النوابغ ورؤاهم للعالم، وخلفياتهم الثقافية، والدينية، والاجتماعية، والإيديولوجية، وتأثير البيئة في تكوينهم الفكري والنفسي والعلمي.

ولكنَّ التاريخ قد علّمنا كذلك بأنَّ عالَمَ الأفكار عالَمٌ ممتد أفقياً وعمودياً، وبأنّ الأفكار التي أنتجها مفكرون ومجددون ومصلحون ومبدعون فرادى لا تؤتي أكلها إلا بتضامن مجتمعي مع هذه الأفكار. وهذا يتطلب بالضرورة قدراً من الانسجام الفكري بين الأفراد، والتركيز على بنائهم الفكري الجمعي، والتراكمية في حركة الإصلاح، وعلى تطوير هذه الأفكار وتفاعلها ضمن تفكيرٍ وتفعيل مؤسسي. وفي هذا الزمن المتسارع جداً نحن بحاجة ماسّة إلى ثلاثية متصلة، هي: البناء الفكري الجماعي، وإلى ملاحظة خط التطوّر الذي وصلت إليه المشاريع التجديدية وتوصيفها وتقويمها، وإلى الإنجازات المؤسسية في هذا السياق. وهذه الثلاثية متسقة مع بعضها بحيث تضمن بقاء الفكرة حيّة بين أبنائها والمنتسبين إليها؛ فقد أثبتت التجارب أن التفكير الجماعي ساهم بصورة كبيرة في تطوير الأفكار، من خلال التفاعل بين الأفراد متنوعي التخصصات والرؤى والميول والاتجاهات وحتى المذاهب، وهم ينطلقون -في الوقت نفسه- من مرجعية ورؤى كلية واحدة، فكانت محاوراتهم إغناءً وتطويراً للفكرة، وتأسيساً علمياً ومعرفياً لها، وأدّى الانسجام بين الأفراد إلى تماسك هذه الفكرة وقوة حضورها في المجتمع.

وهذا الاتساق الجمعي تبلور تاريخياً في صورة مذاهب ومدارس وجماعات علمية ومراكز بحثية. وبالمقارنة بين الأفكار التي أبدعها أفراد ولم تُستثمر مؤسسياً، والأفكار التي تبنتها مؤسسات

ومراكز ومعاهد، سنجد ديمومة وانتشاراً للأفكار التي احتضنتها المؤسسات؛ لما لهذه المؤسسات من قدرة إدارية في التخطيط والتنظيم وتحفيز أفرادها على التفاعل مع الأفكار. وأبرز مثال نستحضره في هذا السياق المذاهب الإسلامية، التي تُعدُّ صورة مهمة للبناء الفكري الجماعي، واستثماراً لطاقات الأفراد الإبداعية، وكشفاً عن أهمية البنية الفكرية في تطوير منظومة الفقه الإسلامي، الذي يُعدُّ -حقيقةً- مقياساً ومعياراً مهمّاً في الكشف عن استيعاب العقل المسلم لعلاقة النصّ بالواقع، وقدرته على فهم مقاصد النص. كما يُبرز لنا (المذهب/ المؤسسة) الاجتهادات المتعددة داخل المذهب نفسه، وألوان التفكير والسلوك داخل المذهب، وحدود الثابت والمتغيّر في المذهب، ومسائل الخلاف والاتفاق مع المذاهب/ المؤسسات الأخرى. وهكذا يغدو (المذهب/ المدرسة/ المؤسسة) تعبيراً واضحاً عن ماهية الوحدة والتنوع في الفكر الإسلامي؛ إذ الوحدة في المبادئ الكلية للمذهب، وهي تتصل بمرجعية المسلم والأمة؛ والتنوع قائم على فهم العلاقة بين النص والحادثة أو الواقع.

إنّ التركيز على البناء الفكري في المشاريع التجديدية والإصلاحية لا يعني انفصال الـمُجدِّد والـمُصلِح عن واقعه ومجتمعه، والتفكير في عالم منعزل يتماهى مع عالَم حي بن يقظان أو النظر بتعالٍ وعدم تقدير للمشاريع الإصلاحية التجديدية الأخرى؛ بل يعني استثماراً واعياً للأفكار الأصيلة، ومنهجيةً واعية في التعامل مع الأفكار الطارئة والمستجلَبة. ومن المهم جداً أن يُنظِّر المجدِّد والـمُصلح في تأسيسه للأفكار وتأطير سُبُل العلاج؛ إذ إن التنظير قراءةٌ فكرية ومعرفية لِفِعْل المجتمع وسلوكه، واكتشافٌ لخلفيات هذا الفِعْل والسلوك، وربطٌ بين منظومة الحدَث ومنطلقاته ومآلاته، ووضعٌ للقواعد الكُلية اللازمة لضبط هذا الحدَث. ومن ثم، إعادة تفسير الواقع بصورة أكثر وعياً وإدراكاً لمنطلقاته الفلسفية والفكرية والمعرفية والثقافية والاجتماعية.

وهذه الصورة للعلاقة بين المجدِّد والمجتمع والواقع هي علاقة صاعدة ونازلة في الوقت ذاته؛ إذ إنَّ المجدِّد نتاج المجتمع والبيئة بأشكالها كافة، لكنه يتحرر من القيود المعيقة في مجتمعه، مستشرفاً آفاقاً لصورة المجتمع الذي يسعى لتغييره وإصلاحه، وهو في وعيه المتنامي في إدراك قضايا مجتمعه ومشكلاته ومتطلبات الارتقاء به يغدو المجدِّد معبِّراً عن تعبيراً علمياً عن الواقع والطموح،

والمشهود والمنشود. وهذا الاتساق بين جهده التفكيري التنظيري من جهة، ووعيه لقضايا الواقع واحتياجاته من جهة أخرى، يتيح له امتلاك أكثر من صوت، ولعب أكثر من دور في مخاطبة المجتمع؛ فهو يهتم بالكُليّات والجزئيّات والمجرّدات في الوقت نفسه، ويتفاعل مع قضايا المجتمع ويصوغها بخطاب نابع من ثقافة المجتمع ورؤيته الكلية. وبذلك يوفّر البناء الفكري لحركات الإصلاح وعياً منهجياً قادراً على التفكير والتوصيف والتفسير والاستشراف، والتمييز بين الثوابت والمتغيرات، والمقولات الـمُحكمة والمتّصلة بالمرجعيات، والمقولات الاجتهادية المتعلقة بآراء العلماء والمفكرين، ووعياً منهجياً بالتعامل مع حركات التجديد والإصلاح في الحضارات الأخرى، وكيفية الإفادة منها دون إسقاط أو استلاب أو تعارض مع المرجعية.

إنَّ تحديد طبيعة البناء الفكري في أية رؤية تجديدية عاملٌ مهم في توصيف هذه الرؤية، ومكانتها في دائرة التفكير الإسلامي (الداخل أو الخارج)؛ إذ تغدو معياراً لخطابات التجديد المتسقة والمفارقة للنظام المعرفي الإسلامي ومنطلقاته ومنهجه ومقاصده. ومن الخطأ أن يُناط التجديد أو الإصلاح بفئة دون أخرى بناءً على التخصص الأكاديمي؛ فهذا قد يصدُق على محاولة التجديد في العِلم ذاته؛ كأن نُجدد في العلوم الاجتماعية والإنسانية أو اللغوية. أما التجديد في الفكر، ونخص هنا الفكر الإسلامي، فهو متّصل بقدرة الفرد المسلم؛ أيّاً كان تخصصه، على استيعاب الرؤية الكلية والنظام المعرفي للإسلام، ومنهجية التعامل مع الأصول التأسيسية والتراث. وتطول قائمة المجددين والمفكرين والمصلحين من خارج تخصصات علوم الشريعة، ولكنهم ينتمون إلى الرؤية الكلية الإسلامية بتفاصيلها، وجاء بناؤهم الفكري منسجماً مع خطابهم للمجتمع، والبنية المعرفية والعقدية لهذا المجتمع. وبناء على هذه العلاقة بين طبيعة البناء الفكري وخطاب الـمُجدِّد نعي تلقّي المجتمع والأمة أفكارَ بعض المجددين بالقبول أو الرفض؛ اتساقاً أو تعارضاً مع البناء الفكري للمجتمع، فيغدو خطاب بعض المجددين نشازاً؛ فثمة ما هو متكئ على منظومة معرفية مفارِقة للمنظومة المعرفية الإسلامية؛ ومنها ما يستند إلى بعض الآراء الشاذة التي برزت في التاريخ، ووُصفت بأنها أفكار متقدمة أو ثورية، ولم تكن في الواقع إلا أراء خارجة عن وعلى ثوابت التفكير الإسلامي.

وفي ختام هذه الكلمة نتقدم إلى أسرة المجلة ومتابعيها وإلى الأمة بتعازينا الحارة لوفاة الأستاذ محي الدين عطية، ذلك العالِم العامل الذي انتقل إلى رحمته تعالى في تموز 2022. وقد كانت له إسهامات إدارية مهمة في المجلة منذ أن بدأت عام 1995؛ إذ كان عضواً في هيئة التحرير، وتولّى إدارة التحرير بضعة أعداد، فضلاً عن إعداده لباب مهم من أبواب المجلة وهو باب وراقيّات (ببلوغرافيا). نسأل الله أن يرحمه، وأن يأجر خيراً رواد حركات التجديد والإصلاح لما قدّموه للأمة جمعاء.